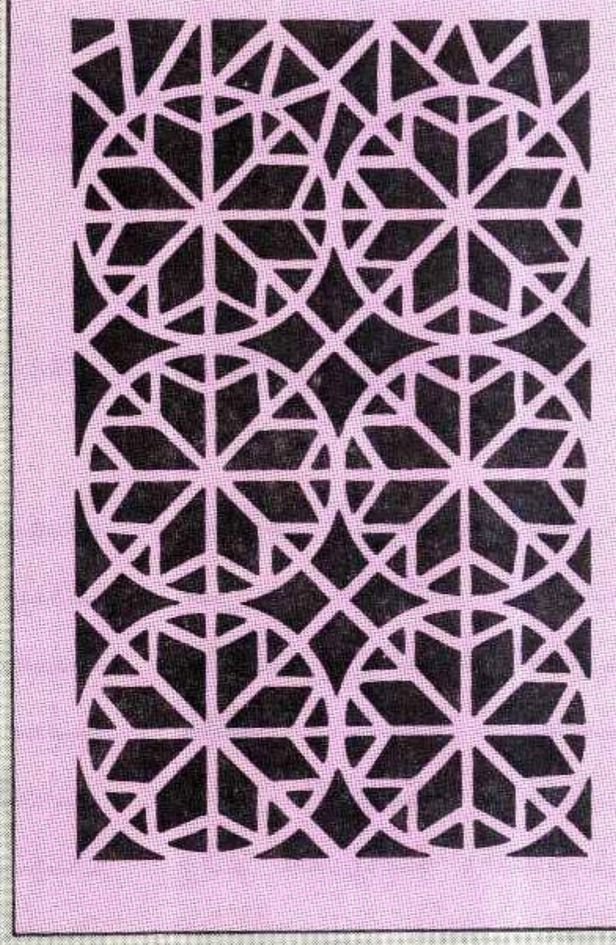

من أسرار البلاغة في القرآن

بقلم : السيد عبد العال السيد

● ان البلاغة حقيقة من حقائق القرآن ، وصفة من صفاته ، و لون من ألوان الاعجاز و التحدي فيه ..

● الاعجاز البلاغي في القرآن يتحدى الانس و الجن مجتمعين متعاونين متظاهرين ..

● القرآن الكريم كتاب يأسر القلوب ، ويستوي في الخضوع لتأثيرة كل الناس ... المؤمن والكافر ، والمتعلم والأمي ...

● كان العربي يستجيب للقرآن بفطرته ، وكان يخضع لذوقه الفني الذي لا يخضع لضوابط أو مقاييس ... إنه التذوق الانساني للجمال ...

القرآن والبلاغة

□□ سميت البلاغة بلاغة لأنها تبلغ الغاية ، وتنتهي بالمعنى إلى قلب السَّامع فيفهمه ويستجيب له ، ويقتنع بكل ما فيه حتى ولو خالف مفاهيمه القديمة ، وكل كلام يحقق ذلك فهو بليغ .

والبلاغة صفة للكلام ، وليست صفة للمتكلم ، فإذا أطلقنا على المتكلم وقلنا « فلان بليغ » كان ذلك نوعاً من المجاز لأن المعنى الحقيقي : « فلان كلامه بليغ » ، ألا ترى أن الله سبحانه وتعالى قد جعل البلاغة من صفة الحكمة لا من صفة الحكيم فقال : ﴿ حِكْمَةٌ بَالِغَةٌ فَمَا تُغْنِي النُّذُرُ ﴾ (القمر : ٥) .

وبهذا المعنى نستطيع أن نصف القرآن الكريم بالبلاغة ، ولا نستطيع أن نصف الذات العليا بها ، وبلاغة القرآن فوق الوصف والتصوير لأنها جزء من إعجازه ، ولأنه حين يخاطب النَّاس يملك منهم القلوب والمشاعر ، ويسيطر على العقول ، بل يصل بأثره إلى الجانب المادي في الإنسان ، إلى جلده الظَّاهري : ﴿ اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَاباً مُتَشَابِهاً مَثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ ذَٰلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ ﴾ (الزمر : ٢٣) . □□

وكما نصف القرآن بالبلاغة نصفه أيضاً بالبلاغ لأن البلاغ هو التبليغ ، قال تعالى : ﴿ إِنَّ فِي هَذَا لَبَلَاغاً لِقَوْمٍ عَابِدِينَ ﴾ (الأنبياء : ١٠٦) ، وقال سبحانه : ﴿ هَٰذَا بَلَاغٌ لِلنَّاسِ ﴾ (إبراهيم : ٥٢) ، أي : هذا القرآن تبليغ يصل إلى النَّاس ، والرسول صلوات الله وسلامه عليه مبلغ يحمل رسالة الله إلى عباده : ﴿ يَأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِن رَبِّكَ ، وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ ﴾ (المائدة : ٦٧) ، ﴿ مَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَاغُ ﴾ (المائدة : ٩٩) .

في ضوء هذه الأنوار القرآنية نقول : إن وصف القرآن بالبلاغة أمر وارد شرعاً بل إن البلاغة حقيقة من حقائق القرآن ، وصفة من صفاته ، ولون من ألوان الإعجاز والتحدي فيه . إنه البلاغة والبلاغ ، والحجة والاعجاز ، جمع صفات الكمال اللفظي ، وجلال الحسن المعنوي ، أرشد الضال ، وهدى الحائر ، وملأ القلوب بالنور والرحمة ، وصدق الله :

﴿ إِنَّ هَذَا ٱلْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْراً كَبِيراً ﴾ (الإسراء : ٩) ، ﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ

﴿ ٱلْقُرْآن مَا هُوَ شِفَاء وَرَحْمَة لِّلْمُؤْمِنِين ﴾ (الإسْرَاء : ٨٢) ، ﴿ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَابَ تِبْيَاناً لِكُلِّ شَيْء وَهُدىً وَرَحْمَة وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِين ﴾ (النحل : ٨٩) .

والتحدي بالإعجاز البلاغي في القرآن جمع كل علامات القوة ، ووصل إلى أبعد مدى ، فهو يتحدى الإنس والجن مجتمعين متعاونين متظاهرين ، ويتحدَّاهم أن يأتوا بمثل القرآن ثم يتدرَّج في التحدي حتى يصل إلى سورة واحدة ، ويجزم بأن ذلك لن يكون :

﴿ قُلْ لَئِن ٱجْتَمَعَت ٱلإِنْس وَٱلْجِن عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا ٱلْقُرْآن لاَ يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُم لِبَعْضٍ ظَهِيراً ﴾ (الإسْرَاء : ٨٨) .

أسـرار البلاغـة القرآنيـة ..

والآن نسأل : **ما أهم أسرار البلاغة القرآنية** ؟ ونبادر إلى القول بأن **العلماء ظلوا منذ نزل القرآن إلى اليوم وهم يبحثون عن هذه الأسرار ، وفي كل يوم يعرفون جديداً ، وهم من خلال أبحاثهم يضعون للأدباء والبلغاء قواعد ، ويأخذون نماذج ، ويعرضون أمثلة ، وتراثنا العربي غني بذخائر من هذا التراث البلاغي ، ولا يزال النبع القرآني فيَّاضاً ، وسيبقى إلى الأبد مصدر الوحي والتوجيه لكل بليغ . غير أننا نريد في هذه الدراسة أن نقف عند بعض المعالم ، وأن نعرضها في أسلوب مألوف بعيد عن الاصطلاحات الفنية ، والحوار العلمي العميق ، نريد أن نعرضها في صورة سهلة تلتقي بواقعنا ، وترضي مشاعرنا ، وتنير درب الحياة أمام شبابنا حين يبحثون عن أسرار البلاغة العربية .**

وأول معالم البلاغة التي نقف عندها اليوم أن القرآن يمتاز بما نسميه « **قوة التأثير** » فهو كتاب يأسر العقول والقلوب ، **ويستوي في الخضوع لتأثيره النَّاس** ، يستوي في ذلك **المؤمن والكافر ، والمتعلم والأمي** . ومهما تباينت مشاعر النَّاس ، أو اختلفت مناهجهم في الحياة ، ومهما تنوعت مصادر ثقافتهم ، أو تعددت قدراتهم الذهنية فانهم جميعاً أمام القرآن خاضعون خاشعون ، تأمل كل من يستمع إلى القرآن وحده أو في جماعة تجد مصداق ما أقول إما بالصمت البليغ ، والاستجابة الوجدانية ، واهتزاز المشاعر والأحاسيس ، وإما بالانفعال البالغ والتأثر الذي يسيل الدموع . وإني لأذكر الساعة شيئاً فريداً في نوعه هز أعماقي وأنا صبي صغير . . كنت أتعلم القرآن عند معلمي وسعيت إليه ذات صباح وكان وحده في غرفته العارية من كل أثاث ، **كان شيخاً فانياً جاوز عمره الثمانين وكان كفيف البصر ، ناحل الجسم ، واهن الصوت ، وجلست إليه لأتلو سورة الأعراف ، ولم يكن في الدار أحد ، وبدأت القراءة في وجل وخوف ، ثم اطمأن مني القلب وهدأت الجوارح حين وفقني الله ، ومضيت في تلاوتي والشيخ صامت ساكن** ، يهز جسمه النَّاحل جيئة وذهاباً على نغمات الصوت ، فلما وصلت إلى قول الله تعالى :

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَٱسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لاَ تُفَتَّحُ لَهُم أَبْوَاب ٱلسَّمَاء ، وَلاَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّة حَتَّى يَلِجَ ٱلْجَمَلُ فِي سُمِّ ٱلْخِيَاط ، وَكَذَلِكَ نَجْزِي ٱلْمُجْرِمِين ، لَهُمْ فِي جَهَنَّم مَهَاد ، وَمِنْ فَوْقِهِم غواش ، وَكَذَلِكَ نجْزِي ٱلظَّالِمِين ﴾ (الأعراف : ٤٠-٤١) .

سمعت صرخة عميقة طويلة ترددت بشجنها وعنفها في أرجاء القاعة العارية الجدران ، وامتدت **يد الشيخ** أمامه يشير إلي أن اسكت ، ثم انفجر في بكاء عنيف ، وألجمتني المفاجأة ، وأصابني الذهول . . لم أكن أعرف يومها شيئاً ، **لكني اليوم أدرك تماماً أن القرآن قد ملك على هذا الشيخ كل حواسه ، وانه بعمقه وتأثيره قد أفقده السيطرة على نفسه ، فانطلقت منه الصرخة الباكية ، واندفع في عويله وبكائه دون أن يخجل من هذا الصبي الصغير الجالس أمامه ، والله وحده يعلم مقدار ما كان يعيش فيه هذا الرجل من فقر ، ومقدار ما عرف عنه من صلاح وتقوى ، وتفرغ للعبادة والقرآن ، ولكنها بلاغة القرآن وقوة تأثيره .**

لم يكن معلمي هذا يعرف شيئاً عن الاصطلاحات الفنية التي يتحدث عنها علماء البلاغة ، والتي يدرسها الناس في المدارس والمعاهد ، لم يكن يعرف التشبيه أو الاستعارة أو الكناية ، ولم يسمع عن شيء اسمه التقديم والتأخير ، أو الحذف والذكر ، أو الوصل والفصل ، أبداً ما سمع عن شيء من ذلك ، لكنه سمع كلاماً يتنزل على قلبه كما تتنزل قطرات الندى على رمال الصحراء المحروقة بنار الشمس ، أو قل كما تنزل سياط العذاب على جسد أخطأ صاحبه ، المهم انه استجاب بكل ما يملك من عواطف ومشاعر وفهم لهذه الآيات فبكى .

ورحم الله **أستاذي الشيخ** ، فقد صدق عليه قول الله : ﴿ إِذا تُتْلَىٰ عَلَيْهِم آيَاتُ ٱلرَّحْمٰن خَرُّوا سُجَّداً وَبُكِيّاً ﴾ (مريم : ٥٨) ، وصدق عليه قول الرسول صلوات الله وسلامه عليه فيما رواه أبو هريرة رضي الله عنه : (ما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله يتلون كتاب الله ويتدارسونه فيما بينهم إلاَّ نزلت عليهم السَّكينة وغشيتهم الرحمة ، وحفتهم الملائكة ، وذكرهم الله فيمن عنده) .

إن القرآن نزل للناس جميعاً ، والنَّاس مختلفون في مشاربهم وفي استعداداتهم ، وفي قدراتهم ، فيهم من يحكم العقل والمنطق **والقرآن يخاطبه بالحجة والدليل** ، وفيهم من يفتح قلبه للموعظة ، ويهفو فؤاده للبشرى والقرآن يخاطبه بما يدخل إلى القلب في رفق وعمق وتمكن ، وفيهم من لا يعرف منطقاً ، ولا يستجيب لموعظة ، وإنما يحتاج الحقيقة كما هي فيقدمها له القرآن سافرة ، وفيهم من يحتاج إلى الأمثلة يضربها له المتحدث حتى يفهم ويعرف ﴿ وَتِلْكَ الأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُون ﴾ (الحشر : ٢١) ، فقوة التأثير القرآني تشمل كل النَّاس ، العقليين والعاطفيين ، المتعلمين والأميين ، المصدقين والمكذبين . . إلى آخر ما تستطيع ذكره من أصناف وأنواع ، وكل صنف يتأثر تأثراً كاملاً عميقاً ، أما من كتبت له الهداية فإنه يستجيب ، ويخرج من الظلمات إلى النور ، وأما من غلبت عليه شقوته فإنه يبقى على ضلاله مع أنه تأثر أبلغ التأثر ، وخضع أمام جلال القرآن وعظمته ، وهذا هو ما أعنيه حين أقول : إن قوة التأثير القرآني لون من ألوان بلاغته .

الاستجابة للقرآن .. استجابة للفطرة

لقد استجاب العرب للقرآن دون أن يحللوا صور البلاغة فيه بل دون أن يعرفوا هذه الصور ، فما كان العربي القديم يعرف هذه الأسماء : كناية واستعارة . . وإنما كان يستجيب بفطرته ، كان يخضع لفطرته السليمة ، لذوقه الفني الذي لا يخضع لضوابط أو مقاييس تماماً كما يرى الرَّائي فينا الشمس فيدرك عظمتها ، ويعرف مقدار ما فيها من ضخامة وحرارة ولهيب مع انه قد يكون أبعد الناس عن معرفة حقيقة تكوينها . وكما يبصر أحدنا البحر المحيط يمتد أمام عينيه إلى ما لانهاية ، وتتلاطم أمواجه في عنف أو في هدوء ، فيعرف كل المعرفة أنه أمام شيء عظيم إلى أبعد مدى . . والفوارق كثيرة بين عظمة الشمس أو البحر وبين عظمة القرآن ، لكني أريد أن أصل

من كلامي إلى أن الانسان يستجيب للشيء ، ويعرف عظمته دون أن يدرك السر في هذه العظمة ، إنه الاحساس الفطري ، **إنه التذوق الانساني للجمال** ، إنه الادراك اللاشعوري إن صح هذا التعبير .

وهذا لا يتنافى أبداً مع الاستجابة عن فهم ، والتأثر عن معرفة بأسرار البلاغة ومصطلحاتها ، لأن القرآن نسيج وحده في المجالين ، وإعجازه بارز واضح بالاعتبارين : **اعتبار التأثير النفسي الذي يخاطب الفطرة والذوق ، واعتبار التصوير البلاغي والتنسيق اللفظي كما تواضع عليهما علماء البلاغة** ، ونحن اليوم في المجال الأول ، مجال **التأثير النفسي** الذي وضحته الآية الكريمة أدق توضيح :

﴿ اللهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَاباً مُتَشَابِهاً مَثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهم ، ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهم وَقُلُوبهم إلى ذِكْرِ ٱللهِ ﴾ (الزمر : ٢٣) ، إذ أن سياقات القرآن تأتي تارة في معنى واحد ، وتتوارد على فكرة واحدة وهذا هو (**المتشابه**) المقصود في هذه الآية ـ وتأتي تارة أخرى بذكر الشيء وضده كصفة الجنة وصفة النَّار ، أو صفة المؤمنين وصفة الكافرين ، أو ذكر الأبرار ثم الفجار ، وهذا هو (**المثاني**) . والآية الكريمة تقول : إن القرآن بنوعيه :

(**المتشابه والمثاني**) يحدث من الأثر ما تقشعر منه الجلود والقلوب خشية ورهبة ، لكنها حين تعيش في رحابه ، وتستروح نسمات الرحمة الإلهية فيه تعود إلى الطمأنينة والأمل طمعاً في مغفرة الله ولطفه بعباده .

فإذا أردنا أن نقف على شيء من أسرار البلاغة اللفظية في هذه الآية وجدنا الكثير : هذا الابتداء بلفظ الجلالة الأكبر ، ونسبة فعل التنزيل إلى ضميره ، وبناء الفعل على ذلك في هذا التركيب ﴿ ٱللهُ نَزَّلَ ﴾ يعطي تفخيمًا للقرآن وإعلاء لمنزلته .

وهذه الصفات التي وصفت الآية القرآن بها أعطته بعض حقه : فهو **﴿ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ ﴾** ، وهو متنوع الأسلوب ، فيه المتشابه والمثاني ، وهو مؤثر في القلوب والجلود ، يؤثر في مادة الجسم الانساني وفي روح هذا الانسان ، وتأثيره في القلوب متنوع فهو تأثير الخوف والرهبة أولاً ، ثم هو تأثير الهدوء واللين والرجاء والطمع في الرحمة ثانياً . وهو بعد ذلك كله هدى من الله يهدي به من يشاء من عباده .

وهذا النسق الأنيق ، والتسلسل المتماسك في الألفاظ ، والاختيار للألفاظ المتساوقة مع المعاني بحروفها ذات الجرس المقصود ، وتأمل معي كلمتي : **﴿ تقشعر ﴾** و **﴿ تلين ﴾** ، الأولى استعملت في تصوير التأثر الخائف ، والثانية في تصوير التأثر الهادىء المطمئن . . وتأمل حروف الكلمة الأولى وما فيها من قوة حرف (**القاف**) ، واهتزاز وشدة في حرفي (**الشين والرَّاء**) ، وكل هذا يكاد يحدث في جسمك معنى القشعريرة ، ثم تأمل حروف الكلمة الثانية (**اللين**) فهذه (**اللام**) السهلة وما وراءها من حروف المد اللين الخفيف يعطيانك معنى السكينة حتى لتكاد تحس بها .

كل هذه ألوان بلاغية يعرفها ويعرف غيرها في الآية علماء البلاغة ذكرتها لأدلل لك على أن القرآن نسيج وحده في مجالي التأثير الفطري المعتمد على الذوق ، والتأثير البلاغي القائم على معرفة بالنسق اللفظي وأسرار الحروف والتراكيب .

إن من علامات الروعة البلاغية في الآيـــة الكريمة أنها اكتفت بذكر قشعريرة الجلد عن ذكر خشية القلوب ، يعني ذكرت (**الجلود**) فقط في التأثير الأول فقالت : **﴿ تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ﴾** ولم تقل (**وقلوبهم**) . . والسبب أن تأثر الجلد إنما هو نتيجة لخشية القلب ، فلا يمكن أن يتأثر الجلد إلا إذا تأثر القلب فذكر النتيجة يغني عن ذكر السبب ، فلما ذكرت الآية بعد ذلك اللين ذكرت كلا من الجلود والقلوب فقالت :

﴿ ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله ﴾ لأن لين القلوب صفتها الأصلية الطبيعية .

قالت أسماء بنت أبي بكر : « كان أصحاب رسول الله ﷺ تدمع أعينهم وتقشعر جلودهم عند سماع القرآن » .

أصنـــــــــاف أربعـــــة . .

وعن **أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : (مثل المؤمن الذي يقرأ القرآن مثل الأترجة[1] : ريحها طيب ، وطعمها طيب . ومثل المؤمن الذي لا يقرأ القرآن كمثل التمرة : لا ريح لها وطعمها حلو . ومثل المنافق الذي يقرأ القرآن مثل الريحانة[2] : ريحها طيب وطعمها مر . ومثل المنافق الذي لا يقرأ القرآن كمثل الحنظلة : ليس لها ريح وطعمها مر) . رواه البخاري ومسلم والنسائي وابن ماجة .**

فهذا الحديث يقسم النَّاس أمام القرآن إلى أربعة أقسام أو أنواع : **نوعان يقرآن القرآن وأحدهما مؤمن والثاني منافق ولا يعنينا هنا البحث في أمر اللذين لا يقرآن القرآن ، وإنما يعنينا من يقرأ القرآن مؤمناً كان أو منافقاً ، والحديث الشريف يشبه المؤمن الذي يقرأ القرآن تصويراً محسوساً مشاهداً ،**

وكذلك يشبه المنافق الذي يقرأ القرآن بنفس التصوير المحسوس المشاهد ، فماذا يقول الحديث الشريف بتصويره هذا ؟ يقول : **إن كلام الله له تأثير في باطن العبد وفي ظاهره ، والعباد متفاوتون في ذلك فمنهم من له النصيب الأوفر وهو المؤمن القارىء ، ومنهم من له حظ محدود وهو المنافق القارىء ـ**

وصدق رسول الله ﷺ : (إن القرآن يؤثر في المؤمن ويعطيه ، ويؤثر في المنافق ويعطيه) والقرآن الكريم تحدث عن النوعين حديثاً واضحاً مفصلاً ، وضرب الأمثلة في آيات متعددة .

● لم يكن خضوع عمر بن الخطاب رضي الله عنه للقـرآن الكريم إلا خضوع الفطرة والاحساس والذوق

● لقـد كان الطفيل الدوسي يتفهم كتاب الله بقـلبه ، ويصغي إليه بمشاعره ، ويتشـرب معانيه وأفكاره بروحه وكيانه ، فانتهى به الأمر إلى الايمان

لم يكن العرب عند نزول القرآن يعرفون ما نعرفه اليوم من فنون البلاغة واصطلاحاتها ، نعم ـ كانوا يستعملون بعض صور البيان مكثرين من نوع ومقلين من نوع آخر ، لكنهم ما كانوا يعرفون لها هذه الأسماء التي شاعت بيننا اليوم ، وما وصلوا إلى ما وصلنا إليه حين جعلناها علمًا وتعرف آثارها في الكلام .

ولم يكن العرب يعرفون ما نعرفه اليوم من فنون النقد وطرائق الموازنة ، بل كانوا يعرفون بلاغة الكلام بما يمكن أن نسميه : الفطرة السليمة ، والاحساس الصادق .

كانوا يحكمون على الكلام بما فيه من : روعة الحكمة ، أو صدق التجربة ، أو اصطياد الشارد من الأفكار ، أو السبق في المعنى .
وقد يقدمون الشاعر لبيت واحد يرون فيه شيئاً جديداً لم يسبق إليه ومرجعهم في ذلك الذوق ، والاحساس الذاتي .

فلما نزل القرآن أخذوا ، وعرفوا لأول وهلة أنه شيء فوق طاقتهم ، وأنه ليس من كلام البشر ، وقال فيه قائلهم : « **إن له لحلاوة ، وإن عليه لطلاوة ، وإن أعلاه لمثمر ، وإن أسفله لمغدق ، وإنه يعلو ولا يُعلى عليه ، وما هو من قول البشر** » .

كلمة حق قالها كافر ، لأنه لا يملك إلاَّ أن يقولها ، ولم يستطع أن يحتفظ بها ، لقد أثر فيه الكلام ، وبلغ من نفسه الغاية ، وأخذ عليه كل منافذ التفكير والتقدير ، فاستجاب لفطرته وإحساسه ، وقال كلمته .

وهذا هو ما نعنيه حين نقول : **إن أول علامات البلاغة في القرآن هو تأثيره القوي في النفوس** ، وإن تأثيره هذا يشمل المؤمن والكافر ، والبر والفاجر ، ولقد أشرنا إلى ما ذكره النبي صلوات الله وسلامه عليه حين شبه المؤمن القارىء للقرآن بالاترجة : ريحها طيب ، وطعمها طيب ، وحين شبَّه المنافق القارىء للقرآن بالريحانة : ريحها طيب وطعمها مر ـ كلاهما يقرأ القرآن فيتأثر به ، ويستجيب لبلاغته وإن اختلفت النتيجة .

النَّـــاس أمـــام القـــــــرآن . .

ولقد سجل التاريخ أن الكثيرين من العرب خضعوا حين سمعوا القرآن ﴿ **فَمِنْهُم مَنْ هَـدَى ٱللهُ ، وَمِنْهُم مَنْ حَقَّت عَلَيْـهِ ٱلضَّـلَالَـة** ﴾ (النمل : ٣٦) .

أما الفريق الأول : (من هدى الله) فقد تحدثت عنه بعض الآيات القرآنية الكريمة ، وصورت موقفهم من القرآن ، وبينت أثره في نفوسهم وقلوبهم . قال تعالى :
﴿ **إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللهُ وَجِلَتْ قُلُوبهم ، وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِم آياتُهُ زَادَتْهُم إِيمَاناً ، وَعَلى رَبِّهِم يَتَوَكَّلُون** ﴾ (الأنفال : ٢) . وقال جل من قائل : ﴿ **وَٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِم لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُماً وَعُمْيَاناً** ﴾ (الفرقان : ٧٣) .

فهم لا يتشاغلون عنها ، ولا يستطيعون الانصراف عن تأثيرها ، بل يلقون إليها السمع مدركين لأسرارها ، مذعنين لسحرها ، خاشعين أمام ما فيها من روعة وبلاغة ، ولقد يصل بهم التأثر إلى الخضوع والسجود والبكاء : ﴿ **وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِم آيات ٱلرَّحْمٰن خَرُّوا سُجَّداً وَبُكِيًّا** ﴾ (مريم : ٥٨) .

وأما الفريق الثاني : (**من حقت عليه الضلالة**) فيستمع ويتأثر ، ولكن **يسبق عليه الكتاب ، وتغلب عليه شقوته فلا يستطيع النجاة بنفسه ـ لقد حدث التأثر الفطري بالبلاغة ، ووصلت الرسالة البالغة البليغة إلى القلب ، ولكن لم تحدث الهداية ، لقد شغفهم القرآن ولكن حالت بينهم وبين الإيمان ظلمات العناد والكفر .**

إنهم يعلمون صدقه ، ويدركون بلاغته .
ولكن : ﴿ **خَتَمَ ٱللهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَة وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيم** ﴾ (البقرة : ٧) .

فريق هـــــــــــدى الله . .

ونعود إلى الفريق الأول فنذكر رجلين كان لهما أمام القرآن موقف خالد ، وكان لبلاغة القرآن أثرها في استجابة كل منهما .

وأول الرجلين هو **عمر بن الخطاب** رضي الله عنه في قصة إسلامه ، وهي مروية مشهورة ، فهو رجل عرف في أول أمره بعداوة الاسلام والمسلمين ، وعرف بحدة الطَّبع ، والمبالغة في العنف .

وكانت الثورة واحدة من سماته المشهورة حين يقابل من أمور الحياة ما لا يرضاه .

ولقد دفعته ثورته ذات يوم إلى التفكير في قتل محمد ، وتجاوز حدود التفكير إلى مجال التنفيذ ، فتوشح سيفه ، ومشى يقصد الرسول ﷺ وجماعة من أصحابه سمع أنهم اجتمعوا في بيت عند الصفا .

وبينما هو في الطريق لقيه واحد من قومه ـ بني عدي ـ هو نعيم بن عبد الله ، ، فقال له : **أين تريد ياعمـر** ؟ قال : **أريد محمداً هذا الصَّابىء الذي فرق أمر قريش ، وسفه أحلامها ، وعاب دينها ، وسبّ آلهتها فأقتله** .

فقال نعيم : **لقد غرَّتك نفسك يا عمر ، أفلا ترجع إلى أهل بيتك . فتقيم أمرهم ؟**

فقال عمـــر : **وأي أهل بيتي ؟**

قال نعيم : **ختنك وابن عمك « سعيد بن زيد » واختك « فاطمة بنت الخطاب » فقد أسلما وتابعا محمداً على دينه .**

وتغلي الدماء في عروق **عمـــر** ، وتأخذه حدّة طبعه فيسرع إلى بيت اخته وزوجها ، لقد صدم في أهل بيته ، وجرح في كبريائه ، فلينتقمن ، وليكونن انتقامه قاسياً .

وفي البيت المؤمن كانت اخته فاطمة وزوجها ، وكان معهما خباب بن الأرت يعلمهما آيات من سورة طه ، ويسمع عمر صوت خباب وهو يتلو القرآن ، وتسمع فاطمة ومن معها حس عمر وهو في الطريق إلى الدار فتأخذ الصحيفة من خباب وتجعلها تحت فخذها .

ويختفي خبَّاب في مكان بعيد من البيت ، فلما دخل **عمـــر** الدار قال **ما هذه الهينمة ؟** قالا : **ما سمعت شيئاً .**

قال : **بلى سمعت أنكما تابعتما محمداً ، وتمتد يده فتبطش بزوج اخته ، وحين تهم فاطمة بالدفاع عن زوجها يضربها عمر فيشجها ، وتسيل الدماء .**

حينئذ تأخذ الزوجين عزَّة الاسلام .

وتقول له فاطمة : نعم . لقد أسلمنا وآمنا بالله ورسوله فاصنع ما بدا لك ، ويطلب عمر الصحيفة فتمنعها أخته عنه لأنها كلام طاهر لا يمسه إلاَّ الطاهر .

ويستمع عمـــر إلى ما في الصحيفة ، يستمع إلى آيات الله :

﴿ طـــهَ ، مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْآنَ لِتَشْقَىٰ ، إِلاَّ تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ ، تَنْزِيلاً مِّمَّنْ خَلَقَ ٱلأَرْضَ وَٱلسَّمٰوَاتِ ٱلْعُلَى ، ٱلرَّحْمٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ، لَهُ مَا فِي ٱلسَّمٰوَاتِ وَمَا فِي ٱلأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ ٱلثَّرَىٰ ، وَإِن تَجْهَرْ بِٱلْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخْفَى ، ٱللَّهُ لاَ إِلَـــهَ إِلاَّ هُوَ لَهُ ٱلأَسْمَاءُ ٱلْحُسْنَىٰ ﴾ (طه : ١-٨) .

وتتردد الآيات الندية العذبة في جنبات البيت المؤمن ، وتتردد الأصداء في سمع الرجل وعقله ، وتتنزل قطرات الغيث على القلب الملفوح بنار الكفر والحقد ، فيقشعر جلده ، وتسكن ثورته ، ويطامن من كبريائه .

نعـــم : **سكنت الجوارح واطمأنت النفس الثَّائرة ، واهتزت المشاعر الجامدة ، وغامت في جنبات العين عبرات نادمة ، ونطقت الشفتان . « ما أحسن هذا الكلام وأكرمـــه »** ، وما أصدق ما قال ، إنه فعلاً الكلام البليغ البالغ المؤثر ، إنه الإعجاز القرآني يملك هذا القلب الذي لم يسمع استعارة أو كناية ، أبداً .

لم يكن خضوع عمر للقرآن خضوع رجل البلاغة الذي يعرف أبوابها وفنونها ، وإنما كان خضوع الفطرة والاحساس والذوق ، ولهذا بلغ الكلام من نفسه ما لا يمكن أن يبلغه كلام البشر .

لقد تهاوى الجبل ، وسكن البركان ، وانطلق صوت خباب وقد خرج من مخبئه وهو يقول : « **يا عمر ، والله إني لأرجو أن يكون الله قد خصَّك بدعوة نبيه ، فإني سمعته بالأمس يقول : (اللَّهم أيِّد الاسلام بأبي الحكم بن هشام ، أو بعمر بن الخطاب) ، فالله الله يا عمـــر** » . عند ذلك قال عمر : « **فدلني يا خباب على محمد حتى آتيه فأسلم** » .

ماذا حدث حتى تغير المشهد من الأسود إلى الأبيض ؟

ماذا حدث حتى يصبح الكافر مؤمناً ؟ والسَّاعي إلى الشر والدم ساعياً إلى الهدى والفلاح ؟

كل ما في الأمر أنه سمع البلاغ ووعى ، وأنه استجاب للبلاغة التي تهد الجبال :

﴿ لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا ٱلْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعاً مُتَصَدِّعاً مِن خَشْيَةِ ٱللهِ ﴾ (الحشر : ٢) . ولقد كان عمر جبلاً ، ولكنه خشع وتصدع فصدق عليه أصدق مقياس تقاس به بلاغة القرآن .

نحن هنا في موقف لا صلة له مطلقاً بتشبيه أو استعارة ، بل أقول : إن عمر حين خشع قلبه لم يكن يتأمل ما في آيات سورة طه من فنون القول التي يعرفها اليوم رجال البلاغة والنقد فعمر لم يحلل ولم يعلل ، ولم يكن يعرف إلاَّ أن قلبه قد ارتوى بعد عطش ، وأن نداوة الحياة تسري في كيانه كله وتحركه وترج أعماقه : **﴿ وَلَوْ أَنَّ قُرْآناً سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَال أَوْ قطعت بِهِ ٱلأَرْض أَو كلّم بِهِ ٱلْمَوْتىٰ ﴾** (الرعد : ٣١) ، أي لكان هذا القرآن .

إنه قادر بتأثير بلاغته أن يسير الجبال ، وأن يشق الأرض ، وأن يمتد إلى ما وراء الحياة فيكلم الموتى في القبور .

إنه صوت الله يهز الكون كله ، سماءه وأرضه ، أفلا يستطيع بعد ذلك أن يلين القلوب الجامدة ولو كانت كالحجارة قسوة وصلابة ؟

﴿ وَإِنَّ مِنَ ٱلْحِجَارَةِ لما يَتَفَجَّرُ مِنْهُ ٱلأَنْهَارُ ، وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ ٱلْمَاءُ وَإِنَّ مِنْها لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ﴾ . (البقرة : ٧٤) .

وثاني الرجلين هو الطفيل بن عمرو الدوسي ـ وكان شريفاً في قومه ، وكان شاعراً لبيباً قدم مكة يوماً فسمع النَّاس يخوفونه من محمد ، ويقولون له : « **إنَّا نخشى عليك وعلى قومك ما قد دخل علينا ، فلا تكلمنه ، ولا تستمعن منه شيئاً** . . . » . وما زالوا به حتى أجمع أمره ، وصمم ألاَّ يسمع من الرسول ﷺ شيئاً ، حشا في أذنيه قطناً ، وغدا إلى المسجد فإذا رسول الله صلوات الله وسلامه عليه قائم عند الكعبة يصلي .

فلما اقترب منه سمع شيئاً من كلامه فأعجبه .

فقال لنفسه : « **والله إني لرجل عاقل ، وشاعر فاهم ، ما يخفى عليَّ الحسن من القبيح ، فما يمنعني من سماع الرَّجل ؟** » .

وذهب إلى رسول الله ﷺ في بيته ، وقص عليه قصته ، فعرض عليه رسول الله ﷺ الاسلام ، وتلا عليه القرآن ـ فأسلم .

ورجع الطفيل الدوسي إلى قومه فدعاهم إلى الاسلام فأسلموا ، وما كان

الطفيل أيضا يقيس القرآن في هذا المقام بمقياس البلاغة الاصطلاحية ، ويتعرف إلى ما فيه من مقامات التأخير والتقديم ، أو مظاهر الإيجاز والاطناب .

لقد كان يصغي بمشاعره ، ويتفهم بقلبه ، وتشرب المعاني والافكار بروحه وكيانه كله ـ ووصلته الدعوة وانتهى به الكلام البليغ إلى الإيمان .

لو أحببت أن أروي أخبار الرجال الذين استمعوا إلى القرآن فأسلموا ، ودخل النور إلى قلوبهم لطال بي الحديث وما انتهى . . ولعلنا نعرف أن **أبا ذر الغفاري** واحد من هؤلاء . لكني أوثر أن أكتفي بهذين الرَّجلين ففيهما ما أريد من دليل .

فـــريق حقَّت عليهم الضَّلالـــــــــة . .

ونرجع إلى الفريق الثاني (من حقَّت عليهم الضَّلالة) ـ فريق الذين يستمعون ، ويفهمون ، وتصل الرسالة كاملة إليهم ، ولكن تغلب عليهم شقوتهم ، ويسبق عليهم الكتاب ـ والأخبار الثابتة في هذا المقام كثيرة ومتواترة .

لقد كانوا يستمعون إلى القرآن ، وتصل قوة التأثير إلى السيطرة الكاملة عليهم ، لكن الله لم يرد لهم الهداية فمضوا مع التاريخ أدلة شاهدة على أمرين : قوة التأثير القرآني ـ وقوة العناد والمكابرة . .

وإن أخبارهم لتؤكد المعنى الذي أسوقه عن التأثر بالقرآن تأثراً . يدرك بالفطرة والذوق والاحساس تماماً كما يؤكد ذلك إيمان عمر وأبي ذر الغفاري ، بل لعلَّ تأثر الكافرين بالقرآن أبلغ دلالة على ما أقول من تأثر المؤمنين لأن تصديق المصدق قد تساعد عليه عوامل أخرى غير القرآن ، أما تصديق العدو المكذب فلا يخضع لأي عامل آخر غير ما نتحدث عنه من بلاغة القرآن .

ونذكر من هؤلاء « عتبة بن ربيعة » ويروي قصته الإمام العالم « عبد بن حميد » في مسنده عن « جابر بن عبد الله رضي الله عنه » ، ويرويها أيضاً « **الحافظ أبو يعلى الموصلي** » بإسناد مثل إسناد « **ابن حميد** » ، وقد رواها أيضاً الإمام « **ابن إسحاق بن يسار** » مع اختلاف في النمط .

قال ابن يســـار : حدثت أن عتبة بن ربيعة وكان سيداً قال يوماً وهو جالس في نادي قريش ورسول الله ﷺ جالس في المسجد وحده : يا معشر قريش ، ألا أقوم إلى محمد فأكلمه وأعرض عليه أموراً لعلَّه أن يقبل بعضها فنعطيه أيها شاء ويكف عنَّا ؟ وذلك حين أسلم حمزة رضي الله عنه ، ورأوا أصحاب رسول الله ﷺ يزيدون ويكثرون ، فقالوا : بلى يا أبا الوليد ، فقم إليه فكلِّمه .

فقام عتبـة حتى جلس إلى رسول الله ﷺ . فقال : يا ابن أخي ، إنك منَّا حيث علمت من السلطة في العشيرة والمكان في النسب ، وإنك قد أتيت قومك بأمر عظيم ، فرقت به جماعتهم ، وسفهت به أحلامهم وعبت به آلهتهم ودينهم ، وكفرت به من مضى من آبائهم ، فاسمع مني أعرض عليك أموراً تنظر فيها لعلَّك تقبل منها بعضها . قال :

فقال رسول الله ﷺ : (**قل يا أبا الوليد أسمع**) .

قال : ياابن أخي ، إن كنت إنما تريد بما جئت به من هذا الأمر مالاً جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالاً ، وإن كنت تريد به شرفاً سودناك علينا حتى لا نقطع أمراً دونك ، وإن كنت تريد به ملكاً ملَّكناك علينا ، وإن كان هذا الذي يأتيك رئيا تراه لا تستطيع رده عن نفسك طلبنا لك الأطباء ، وبذلنا فيه أموالنا حتى نبرئك منه فإنه ربما غلب التابع على الرجل حتى يداوى منه ، أو كما قال له .

حتى إذا فرغ عتبة ورسول الله ﷺ يستمع منه قال : (**أفرغت يا أبا الوليد ؟**) .

قال : **نعـــم** .

قال : (فاستمع مني) قال : أفعل ، قال : ﴿ **بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ، حمٓ ، تَنْزِيلٌ مِنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ، كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآناً عَرَبِياً لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ، بَشِيراً وَنَذِيراً فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لاَ يَسْمَعُونَ** ﴾ . (**فصلت : ١ـ٤**) .

ثم مضى رسول الله ﷺ فيها وهو يقرؤها عليه ، فلماً سمع عتبة أنصت لها ، وألقى يديه خلف ظهره معتمداً عليهما يستمع منه حتى انتهى رسول الله ﷺ إلى السَّجدة منها فسجد ، ثم قال : (**قد سمعت يا أبا الوليد ما سمعت فأنت وذاك**) .

فقام عتبة إلى أصحابه ، فقال بعضهم لبعض : **نحلف بالله لقد جاءكم أبو الوليد بغير الوجه الذي ذهب به ، فلما جلس إليهم قالوا : ما وراءك يا أبا الوليد ؟**

قال : « **ورائي أني سمعت قولاً والله ما سمعت مثله قط ، والله ما هو بالسحر ولا بالشعر ولا بالكهانة ، يا معشر قريش أطيعوني واجعلوها لي ، خلُّوا بين الرَّجل وبين ما هو فيه فاعتزلوه ، فوالله ليكوننَّ لقوله الذي سمعت نبأ** » .

وإذا كان عتبة لم يعلن إيمانه بالإسلام فانه قال رأيه صريحاً ، وإنه لمثال قوي للعربي الذي يفهم الكلام بفطرته ، ويعرف فيه الصدق المغني ، ولا يملك إلاَّ الاعتراف والخضوع فقدَّم لنا المثل ولم ينتفع هو به .

لقد شغف كل العرب بسماع القرآن ، وتأثروا به ، لا فرق بين مؤمن وكافر ، ولا بين عالم وجاهل ، ولقد عرف كل عربي سمع للقرآن ما فيه من حق وصدق ، وما فيه من قوة التأثير والسيطرة ـ أمَّا المؤمنون فكانوا يستمعون إليه مذعنين له ، باحثين عن الحق واليقين ، وأمَّا الكافرون فكانوا يطلبون غير الحق لكن تجذبهم إليه حلاوته وعذوبته وطلاوته ، وهذا هو التأثير القوي هذا هو البلاغ والتبليغ ، هذا هو أكمل ما يعرفه العرب من أسرار البلاغـة .